

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد، وآله وصحبه أجمعين:

هذا تعليق لطيف على منظومتي في: **(السيرة إلى الله والدَّار الآخرة)**، يحل معانيها، ويوضح مبانيها، فإنها قد حصلت على كبير من منازل السائرين إلى الله، التي توصل صاحبها إلى جنات النعيم في جوار الرب الكريم، وتمنعه من عذاب الجحيم والحجاب الأليم. والله المسؤول بفضله ومته، أن يجعله خالصاً لوجهه، مقرباً عنده.

واعلم أن المقصود من العبادة: عبادة الله، ومعرفته، ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، وسلوك الطرق التي توصل إلى دار السلام. وأكثر الناس غلب عليهم الحس، وملكتهم الشهوات والعادات، فلم يرفعوا بهذا الأمر رأساً، ولا جعلوه لبنائهم أساساً، بل أعرضوا عنه اشتغلاً بشهواتهم، وتركوه عكوفاً على مراداتهم، ولم ينتهوا لاستدراك ما فاتهم في أوقاتهم، فهم في جهلهم وظلمهم حاثرون، وعلى حظوظ أنفسهم الشاغلة عن الله مكبون، وعن ذكر ربهم غافلون، ولمصالح دينهم مضيعون، وفي سكر عشق المآلوفات هائمون، ﴿فَسُوا اللَّهَ فَنَسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: 179).

ولم يتبه من هذه الرقعة العظيمة، والمصيبة الجسيمة إلا القليل من العقلاء، والتأد من الثبله، فعلموا أن الخسارة كل الخسارة: الاشتغال بما لا يجدي على صاحبه إلا الويال والحرمان، ولا يعوضه مما يؤمل إلا الخسران، فاتروا الكامل على الناقص، وباعوا الفاني بالباقي، وتحملوا تعب التكليف والعبادة، حتى ضارت لهم لذة وعادة، ثم صاروا بعد ذلك سادة، فاسمع صفاتهم، واستعن بالله على الاتصاف بها:

1. سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى ** وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ

هذا هو أصل طريقهم، وقاعدة سير فريقهم: إنهم تجنَّبوا طرق الخسران، وتيمَّموا طرق الرضوان. تجنَّبوا طرق الشيطان، وقصدوا عبادة الرحمن. تجنَّبوا طرق الجحيم، وتيمَّموا سبل النعيم، تركوا السيئات، وعملوا على الحسنات. نزَّهوا قلوبهم وألستهم وجوارحهم عن المحرمات والمكروهات، وشغلوا بفعل الواجبات والمستحبات. تحلوا بالأخلاق الجميلة، وتخلو من الأوصاف الرذيلة.

2. فَهُمْ الَّذِينَ قَدْ أَخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ ** مُتَشَرِّعِينَ بِشَرِيعَةِ الْإِيمَانِ

هاتان القاعدتان وهما: **الإخلاص والمتابعة:** شرط لكل عبادة ظاهرة وباطنة، فكل عمل لا يراؤه وجه الله فهو باطل، وكل عمل لا يكون على سنة رسول الله ﷺ فهو مردود، فإذا اجتمع للعمل **الإخلاص** للمعبود (وهو أن يراؤه بالعمل وجهه الله وحده)، **والتابعة** للرسول ﷺ (وهو أن يكون العمل قد أمر به)، فهذا هو العمل المقبول.

3. وَهُمْ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ ** بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ لِلدِّينَانِ

أي: ساروا في جميع أمورهم مستصحيين وملازمين **للخوف والرجاء**، وذلك أن لهم نظراً، أي: نظر إلى أنفسهم وتقصيرهم في حقوق الله: يحدث لهم الخوف، ونظراً إلى من الله عليهم، وإحسانه إليهم: يحدث لهم الرجاء. وأيضاً، ينظرون إلى صفات العظمة والجلال، والحكمة والعدل، فيخافون على أنفسهم من ترسب آثارها، وينظرون إلى صفات الرحمة والجود والكرم والإحسان، فيرجون ما تقتضيه:

فإن فعلوا حسنة، جمعوا بين الخوف والرجاء، فيرجون قبولها، ويخافون ردها. وإن عملوا سيئة، خافوا من عقابها، ورجَّوْا مغفرتها بفضل الله، فهم بين الخوف والرجاء يترددون، واليهما دائماً يفرعون، ومنهما في أمر سيرهم مترددون، فأولئك الذين أحرزوا قصب السبق، وأولئك هم المفلحون.

4. وَهُمْ الَّذِينَ مَلَآ إِلَهَهُ قُلُوبُهُمْ ** بِوَدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَانِ

هذه المنزلة، وهي منزلة المحبة، هي أصل المنازل كلها، ومنها تنشأ جميع الأعمال الصالحة، والأعمال النافعة، والمنازل العالية.

ومعنى المحبة: تعلق القلب بالمحجوب، ولزوم الحب للقلب، فلا تنفك عنه. وهي تقتضي من صاحبها الانكفاف عن ما يكره الحبيب، والمبادرة إلى ما يرضيه بقلب منشرح، وصدر رحيب، فإن تكلم تكلم بالله، وإن سكَّ سكَّ لله، وإن تحرك تحركه، وإن سكن سكنه، ويحدث عن الحب الشوق إلى الله، والقلق، فلا يكاد صاحبه يستقر.

فإن قيل: فهل للمحبة - التي هي أعلى المراتب - من وسيلة وسبب؟ **قيل:** لم يجعل الله مطلباً إلا جعل لحصوله سبباً، فمن أكبر أسبابها الانكفاف عن كل قاطع بالقول والفعل والأفكار الرديئة، والإكثار من ذكر الله بحضور قلب، وتدبر كلامه الكريم، ومطالعة نعيمه العظيمة على العبد، وبالوقوف بين يديه بحضور قلب، وأدب في الوقوف بين يديه، ومجالسة المحبين، ومجانبة كل قاطع، فمن فعل ذلك نال محبة الله - إن شاء الله -، والله المستعان. **ولهذا قلت:**

5. وَهُمْ الَّذِينَ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ ** فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ

منزلة شريفة، حاجة كل إنسان إليها بل ضرورته إليها فوق كل حاجة، فذكر الله هو عمارة الأوقات، وبه تزول الهموم والغموم والكدورات، وبه تحصل الأفراح والمسرات، وهو عمارة القلوب الممقنات، كما أنه غراس الجنات، وهو موصل لأعلى المقامات، وفيه من الفوائد ما لا يحصى، ومن الفضائل ما لا يعد ولا ينقضي.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوا بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ (الأحزاب: 41/42). وقال النبي ﷺ: رجل قال إن شِرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأوصيني؟ قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ». وقال: «سَبِّحُ الْمُفْرَدُونَ» قالوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

ولي من الآيات:

- وَكَذَكَرَ فِي كُلِّ حَالَةٍ
- فَذَكَرْ إِلَهَ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعَلَّنًا
- وَيَجْلِبْ لِلْخَيْرَاتِ دَيْنًا وَأَجَلًا
- فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لَصَحْبِهِ
- وَوَصَّى مَعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلَهَهُ
- وَأَوْصَى لَشَخْصٍ قَدْ آتَى لِنَصِيحَةٍ
- بِأَنْ (لَمْ يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ) هَذِهِ
- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرَسٌ لِأَهْلِهِ
- فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَقْتُ مُقَيَّدٍ
- يُزِيلُ الشَّقَا وَالْهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ
- وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشْرِدُ
- بِأَنْ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ
- عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحَسَنِ يُعْبَدُ
- وَقَدْ كَانَ فِي حِمْلِ الشَّرَائِعِ يُجْهَدُ
- تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ
- بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالْمَسَاكِينِ تُنْهَدُ

وأخبر أن الله يذكر عبده - ومعنى على كل الأمور يسدّد - وأخبر أن الذكر يبقى بجنبه - وينقطع التكليف حين يُخَلَّدَ ولو لم يكن في ذكره غير الله - طريق إلى حب الإله ومُرشد وينهى الفتى عن غيبة ونميمة - وعن كل قول للديانة مُفسد لكننا لنا حظ عظيم ورغبة - بكثرة ذكر الله نغم الموحّد ولكننا من جهلنا قلّ ذكرنا - كما قلّ منا للإله التّعبد وذكر الله نور للذاكر، في قلبه، وفي قوله، وفي قبره، ويوم حضره. والله المستعان.

6. يَتَقَرَّبُونَ إِلَى تَمْلِكِ بِفِعْلِهِمْ ** طَاعَاتِهِ وَالتَّرْكَ لِلْعَصِيَانِ

هذه الأعمال التي تقرب إلى الله، وتوصل إليه، وهو فعل طاعته، لا سيما الفرائض، وترك معاصيه، كما في الحديث القدسي: «... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ وَمَا أَفْرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَجِبَهُ». **لهذا قلت:**

7. فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَابُّهُمْ ** مَعَ رُؤْيَا تَقْصِيرِ النَّقْصَانِ

هذا هو الكمال: وهو أن يجتهد في أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، ويرى نفسه مقصراً مفرطاً، فاجتهاده في الأعمال ينفي عنه الكسل، ورؤية تقصيره ينفي عنه العجب الذي يبطّل الأعمال ويفسدها.

8. صَبَرُوا النَّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا ** شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانِ

الصبر: هو حبس النفس على ما يكره الإنسان إذا كان فيه رضى الرحمن. والصبر ثلاثة أقسام: **صبر** على طاعة الله حتى يؤديها، **وصبر** عن معاصي الله حتى يتركها، **وصبر** على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسففها، فإذا كسلت نفسه عن طاعة الله حثها عليها، وألزمها، ورغبها بإيائها بثوابها، وإذا اشتدت دواعي نفسه إلى معصية الله كثرها عنها، وحذرها وبألها، وعاقبة فعالها، فالصبر محتاج إليه في كل الأمور.

9. نَزَّلُوا بِمَنْزِلَةِ الرَّضَى فَهُمْ بِهَا ** قَدْ أَصْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانِ

منزلة الرضى أعلى من منزلة الصبر، فإن الصبر حبس النفس وكفها على ما تكره، مع وجود منازعة فيها. وبالرضى تضمحل تلك المنازعة، ويرضى عن الله رضى مطمئن منشرح الصدر، بل ربما تلذذ بالبلاء كتلذذ غيره بالرخاء. وإذا نزل العبد بهذه المنزلة طابت حياته، وقرت عينه. ولهذا سمي الرضا **جنة الدنيا** **ومستراح العابدين**، ومن رضى عن الله رضى الله عنه، ومن رضى عن الله باليسير من الرزق، رضى الله عنه باليسر من العمل.

فحقيقة الرضى: تلقي أحكام الله الأمرية الدينية، وأحكامه الكونية القدرية بانشرح صدر، وسرور نفس، لا على وجه التكره والتلمظ.

10. شَكَرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ ** بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ

الشكر يكون بالقلب، وهو: الاعتراف بنعم الله، والاقترار بها، وعدم رؤية نفسه لها أهلاً، بل هي محض فضل ربه. **ويكون باللسان،** وهو: الشناء على الله بها، والتحدث بها. **ويكون بالجوارح،** وهو كفها عن معاصي الله، والاستعانة بنعمه على طاعته، فإن أعطاه شيئاً من الدنيا شكره عليه، وإن زوى عنه شيئاً منها شكره

أيضاً، إذ رُبما كانت نعمته عليه صارفة عنه شراً أعظم منها، وإن وقفه لطاعة من الطاعات رأى العينة لله في توفيقه لها وشكره عليها. والله المستعان.

11. صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ** مَعَ بَذْلِ جُهِدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَانِ

يكمل العبد في هذين الأمرين، وهما: التوكل على الله، والاجتهاد في طاعة الله، ويتخلف عن العبد الكمال بفقده واحداً منهما.

فحقيقة التوكل تجمع أمرين: الاعتماد على الله، والثقة بالله، فيعتمد على ربه بقلبه في جلب ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فيبرأ من نفسه وحولها وقوتها، ويثق بالله في حصول ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويجتهد في الأسباب التي بها يتوصل إلى المطلوب.

وتفصيل ذلك: أنه إذا عزم على فعل عبادة بذل جهده في تكميلها وتحسينها، ولا يقي من مجهوده مقدوراً، وتبرأ من النظر إلى نفسه وقوتها، بل لجأ إلى ربه، واعتمد عليه في تكميلها، وأحسن الظن، ووثق في حصول ما توكل به عليه. وإذا عزم على ترك معصية قد دعت نفسه إليها، بذل جهده في الأسباب الموجبة لتركها من التفكير بها، وصرف الجوارح عنها، ثم اعتمد على الله، ولجأ إليه في عصمته منها، وأحسن الظن به في عصمته له، فإنه إذا فعل ذلك في جميع ما يأتي ويتر، رُجي له الفلاح إن شاء الله تعالى.

وأما من استعان بالله وتوكل عليه، مع تركه الاجتهاد اللازم له، فهذا ليس بتوكل، بل عجز ومهانة. وكذلك من يبذل اجتهاده، ويعتمد على نفسه، ولا يتوكل على ربه، فهو مخدول.

12. عَبْدُوا إِلَهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ ** فِتْبَؤُوا فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ

هذه المنزلة يقال لها: منزلة الإحسان، وهي كما فسرها النبي ﷺ: «أَنْ تُعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، فإذا تصور الإنسان هذا المقام في جميع أحواله لا سيما حال العبادة: متعه من الالتفات بقلبه إلى غير ربه، بل أقبل بكلية على الله، وتوجه بقلبه إليه، متأدياً في عبادته، آتياً بجميع ما يكملها، مجتنباً كل منقوص لها. وهذه المنزلة من أعظم المنازل وأجلها، ولكنها تحتاج إلى تدريب للنفوس شيئاً فشيئاً. ولا يزال العبد يعودها نفسه حتى تجذب إليها وتعتادها، فيعيش العبد قريب العين بربه، فرحاً مسروراً بقربه.

13. نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ ** بِالْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِحْسَانِ

14. صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا ** أَرْوَاهُمْ فِي مَنْزِلِ قَوْقَانِي

هذه حالهم مع الخلق، أكمل حال وأجلها، فأبدوا لهم غاية النصيح، وأحبوا لهم ما أحبوا لأنفسهم من الخير، وكرهوا لهم ما كرهوا لأنفسهم من الشر، فسعوا في إزالة الشر عنهم بكل ممكن، واجتهدوا في إيصال النفع إليهم بكل مقدور: من أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وإغاثة ملهوفهم، وتعليم جاهلهم، وردع ظالمهم، ونصر مظلومهم، واحتمال أذاهم، وكفهم أذى أنفسهم عنهم، ومع هذا فضحتهم لهم بالظاهر والجسم. **وأما قلوبهم وأرواحهم:** فإنها تجول حول الحبيب، وتطلب من قربه أعظم نصيب، فتارة تنكسر بين يديه، وتخضع وتخضع لديه، وطورا تشكره بحبه، وتدل عليه لاستحضار بره وثره، ثم تميل إلى مراضيه، فتجتهد في عبادته، وتحسن إلى مخلوقاته، فهؤلاء هم الناس، بل هم الغفلاء الأكياس. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

15. أَلَا بِاللَّهِ دَعَوْتُ الْخَلَائِقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا ** خَوْفاً عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ تَقْصَانِ

هذه منزلة الرعاية لأحقيق الإيمان ومشاهد الإحسان، وذلك أن العبد لا ينبغي له أن يعرض عن تدبر أحواله، والتفكير في نقص أعماله، بل يبذل جهده قبل العمل، وفي نفس العمل وتصحيحه وتحسينه، ثم يصونه من المفسدات، ويُنزهه عن المنقصات، فإن حفظ العمل أعظم من العمل، فكلما ازداد العبد رعاية لعمله واجتهاداً فيه ازداد إيمانه، وكلما نقص من ذلك نقص من إيمانه بحسبه.

ومن أعظم ما ينبغي مراعاته في العمل **مشهد الإحسان**، وهو: الحرص على إيقاع العبادة بحضور قلب وجمعيته على الله، كذلك مراعاة مئة الله على العبد، وأنه ينبغي له أن يشكر الله على توفيقه لذلك العمل أعظم شكر. وكذلك مراعاة **الخوف والرجاء**، يخاف من ردها بعجب أو رياء أو تكبر بها، أو عدم قيام بحققها، أو غير ذلك، ويرجو قبولها برحمة ربه ومنه وإحسانه إليه، الذي من جملته توفيقه لها.

16. عَزَّوْا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا ** قَدْ قَرَّعُوهَا مِنْ سِوَى الرَّحْمَانِ

17. حَرَّكَاتُهُمْ وَهَمُّوهُمْ وَعَزَّوهُمْ ** لِلَّهِ، لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ

أي: فرغوا قلوبهم عن جميع ما يشغل عن الله، ويبعد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد. ولا يكفي هذا التفرغ حتى يمتلئ القلب من الأفكار النافعة والعزوم الصادقة، فتكون أفكار العبد في كل ما يقرب إلى الرحمان، من تصور علم، وتدبر قرآن، وذكر الله، بحضور قلب، وتفكير في عبادة وإحسان، وخوف من زلة وعصيان، أو تأمل لصفات الرحمان، وتنزيهه عن جميع العيوب والنقصان، أو تفكير في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأحواله، أو في الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها. فأفكارهم حائمة حول هذه الأمور، متنزهة عن دنيات الأمور، والتفكير بما لا يجدي على صاحبه إلا الهم والويل، وتضييع الوقت، وتشيت البال، غير نافع للعبد في الحال والمآل.

18. نِعَمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السَّبِيلِ الَّتِي ** تُفْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

فهؤلاء هم الذين يسعد بهم رفيقهم، إذا اقتدى بسلوك سيرهم فريقهم. وهؤلاء الذين أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا طريقهم إذ أنعم عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقتهم.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأن يجنبنا طرق الغضب والضلال الموصلة إلى الخزي والويل، إنه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.

والله أسأل، وبأسمائِهِ الحسنى وصفاته ونعمه أتوسل: أن لا يجرنا خيراً ما عنده من الإحسان والغفران، بشر ما عندنا من التقصير بحقوقه والعصيان، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز عنده في جنات النعيم.

والحمد لله رب العالمين، أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً مباركاً فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله. وصلى الله على محمد النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.

المصدر: الموقع الرسمي للعلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله www.binsaadi.com

كن داعياً

أخي الكريم أسهم في الدعوة إلى الله بنسخ هذه المطوية وتوزيعها عسى أن تكون لك حسنة جارية ونسأل الله لك الهداية والثبات والمفطرة

السَّيْرُ إِلَى اللَّهِ

وَالدَّارُ الْآخِرَةُ

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمة الله
(١٣٧٦-١٤٢٧هـ)